٥٠ - تناقضات (٥)

إِنَّ الحَمْدَ لِله... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لاَ يَزالُ الحَديثُ مُتواصِلاً عَن تِلكَ المُتَناقِضاتِ التِي يَقَعُ فِيها عَدَدٌ غَيرُ قَليلٍ مِنَ المُسلِمينَ.

وَإِنَّما كَثُرَ الكَلامُ عَنها، وسُرِدَ بعضِها؛ لأَنَّ كَثيراً مِن أُولَئِكَ الواقِعِينَ فِيها قَدِ اعتادَ عَلَيها فِي مُجرَياتِ حَياتِهِ، فَأَصبَحَت أَمراً مَألوفاً -بَل مُسَلَّماً- عِندَهُم.

وهَذا مِنَ الخَطَأ الواضِحِ، وقَد يَجُرُّ عَلى صاحِبِهِ آثاماً، بِحَسبِ ما يَقعُ فِيه، مِمَّا سَبَقَ، وَمِمَّا يَأتِي ذِكرُهُ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَاستِكمالاً لِلحَديثِ يُقالُ: إِنَّ مِنَ المُتَناقِضاتِ: ما يَتَعَلَّقُ بِتَربِيةِ الأَولادِ، فَيُلاحَظُ على بَعضِ الآباءِ أَنَّهُم يُلَقِّنونَ أَطفالَهُم أَلفاظاً جاهِلِيَّةً، كَالتَّفاخُرِ بِالأَوطانِ والأَنسابِ وَالأَحسابِ، أَو يُعوِّدونَهُم حَركاتٍ مُستَهجَنَةً، كَالرَّقصِ مَثلاً، فَيَنشَأُ ذَلِكَ الطفلُ عَلى تِلكَ الأُمورِ.

وَيَنشَــأُ نَاشِــئُ الفِتيــانِ فِينا عَلى مَــا كَــانَ عَوَّدَهُ أَبُــوهُ

وَالأَدهَى مِن ذَلِكَ: أَنَّ أُولَئِكَ الآباءَ يَفتَخِرونَ بِتِلكَ التربِيةِ، وَيُشيعُ فِي كُلِّ مَجلِسٍ أَنَّ طِفلَهُ يَقولُ كَذا ويَفعَلُ كَذا.

وَلَو قُلتَ لِذَلِكَ الأَبِ: هَل عَوَّدتَ طِفلَكَ عَلى نُطقِ كَلِمةِ التَّوحيدِ أَو البَسمَلَةِ؟ لاستَثقَلَ ذَلِكَ مِنكَ، وَقالَ: هُو جاهِلٌ لا يَفقَهُ شَيئاً، أَو أَنَّهُ سَيَتعلَّمُ ذَلِكَ فِي المَدرَسَةِ.

وَمِثلُ ذَلِكَ أَيضاً:

أَنَّ بعضَ الآباء يُخَوِّفُ أَطفالَهُ الذِّئبَ أَوِ الكَلبَ أَو غَيرَهُما، فَيَنشَأُ الطِفلُ عَلى ذَلِكَ، ويُصبِحُ الذِّئبُ وَالكَلبُ عِندَهُ مِن أَشَدِّ المَخاوِفِ فِي نَفسِهِ.

وَلَو أَنَّ ذَلِكَ الأَبَ خَوَّفَ أَطفالَهُ بِالنارِ وَشِدَّةِ حَرِّها وبُعدِ قَعرِها، أَو رَغَّبَهُم بِذِكرِ الجَنَّةِ وَما فِيها مِنَ النَّعيمِ المُقيمِ؛ لَصَلُحَ حالُهُم.

عَن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اُلله تَعالَى عَنه قَالَ: أَخَذَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اُلله عَنهُما تَمرةً مِن تَمرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلها فِي فِيه، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَخ، كَخ» لِيَطرَحَها، ثُمَّ قَالَ: «**أَما شَعَرتَ أَنَّا لاَ نَأكُلُ الصَّدَقَةَ؟**»[1]، ذَكَرَ الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى فِي سِياقِهِ لِفوائِدِ الحَديثِ:

أَنَّ فِيه تَأديبَ الأَطفالِ بِما يَنفَعهُم، ومَنعَهُم مِمَّا يَضُرُّهُم، وَمِن تَناوُلِ

المُحَرَّماتِ، وإِن كانُوا غَيرَ مُكَلَّفينَ؛ لِيتدرَّبُوا بِذَلِكَ...[2].

- وَقالَ الإِمامُ البَيهَقِيُّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى فِي سُنَنِهِ: (بابُ مَا عَلى الآباءِ والأُمَّهاتِ مِن تَعليمِ الصِّبيانِ أَمرَ الطَّهارَةِ والصَّلاةِ) ثُمَّ ساقَ بِإِسنادِهِ قَولَ النَّبِيِّ ﷺ: «**عَلِّمُوا الصَبِيَّ الصَّلاةَ ابنَ سَبعٍ واضرِبوهُ عَلَيها ابنَ عَشرٍ**»[3].

- وَقالَ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى: (فَإِذا كانَ وقتُ نُطقِهِم فَليُلَقَّنُوا «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اُلله، مُحمَّدٌ رَسُولُ اِلله» وَلَيكُن أَوَّلَ ما يَقرَعُ مَسامِعَهُم مَعرِفَةُ اِلله سُبحانَهُ وتَوحيدُهُ، وَأَنَّهُ سُبحانَهُ فَوقَ عَرشِهِ يَنظُرُ إِلَيهِم وَيَسمَعُ كَلامَهُم، وهوَ مَعَهُم أَينَما كَانُوا، وكانَ بَنُو إِسرائِيلَ كَثيراً ما يُسَمُّونَ أَولادَهُم بِـ «عَما نِويل» ومَعنى هَذِهِ الكَلِمَةِ: إِلَهُنا مَعَنا)[4].

وَمِنَ المُتَناقِضاتِ:

أَنَّ بعضَ النَّاسِ قَد يَقطَعُ عَلاقَتَهُ أَو يُقَلِّصُها مَع شَخصٍ كانَ لَهُ فِي نَفسِهِ مَكانَةٌ عالِيَةٌ، فَتَتَلاشَى تِلكَ الرَّابِطَةُ؛ بِسَبَبِ عَدَمِ اتِّفاقٍ بَينَهما فِي قَضِيَّةٍ مِنَ القَضايا، أَو بِسَبَبِ كَلِمَةٍ خَرَجَت مِن أَحَدِهِم، فَيأتِي صاحِبٌ لَهُما فَيسعَى بِالصُّلحِ بَينَهما، وَيُحاوِلُ إِزالَةَ ما بَينَهما مِنَ النُّفرَةِ والشَّحناءِ.

وَهذا مِن جَميلِ الأَخلاقِ.

لَكِن لَو أَنَّ أَحَدَهُما قَاطَعَ صاحِبَهُ لِله وَفِي اِلله مِن أَجلِ مَعصِيَةٍ أَصَرَّ عَلَيها؛ لَوَجدتَ أَنَّ ذَلِكَ المُصلِحَ لاَ يُعَرِّجُ عَلى المُخطِئِ فَيُناصِحُهُ وَيُذَكِّرُهُ، بَل قَد يُعاتِبُ القاطِعَ، ويُهَوِّنُ الأَمرَ، وَأَنَّهُ لاَ يَستَحِقُّ هَذا كُلَّهُ.

وَقُل فِي مِثلِ هَذا: لَو أَنَّ والِداً هَجَرَ وَلَدَهُ بِسَبَبِ أَنَّهُ اختَلَسَ مالاً مِنهُ، لأَصبَحَت تِلكَ القَضيَّةُ عَلَماً فِي رَأسِهِ نارٌ، وَشُهِّرَ بِالوَلَدِ وَدَمَّهُ مَن يَعرِفُهُ فِي كُلِّ مَجلِسٍ.

---

(1) رواه البخاري (١٤٩١).

(2) «فتح الباري» (٣/ ٤١٦).

(3) «السنن» (٣/ ٨٣).

(4) «تحفة المودود» (ص١٨٧).

لَكِن لَو هَجَرَ الوالِدُ وَلَدَهُ بِسَبَبِ مَعصِيَةٍ أَصَرَّ الوَلَدُ عَلَيها؛ لَتَعاظَمَ بعضُ النَّاسِ ذَلِكَ مِنَ الأَبِ، بَل وقَد يَتَّهِمونَ الوالِدَ بِالقَسوَةِ والظُّلمِ وعَدَمِ الرَّحمَةِ.

وَمِنَ التَّناقُضَاتِ:

أَن تَرى بعضَ النَّاسِ إِذا كانُوا في حَفلَةِ زَواجٍ، وَقُدِّمَ لَهُم مُغَنٍ -والعِيَاذُ بِاللهِ- أَو شاعِرٌ يُلقِي قَصيدَةً، فَإِنَّكَ تَرى مِنهم الإِنصاتَ التَّامَّ وَالإِقبالَ عَلى الاستِماعِ وَالإِعجابِ بِهذا الشَّاعِرِ، أَوِ المُغَنِّي. أَمَّا لَو قُدِّمَ لَهُم طالِبُ عِلمٍ يُفيدُهُم ويُعلِّمُهُم، فَسَوفَ يُنصِتُ إِلَيهِ جَماعَةٌ مِمَّن فِي المَجلِسِ، وَلَكن فِي مُقابِلِ هَؤلاءِ سَتَجِدُ آخَرينَ فِي المَجلِسِ قَد أَصابَهُمُ الضَّجَرُ والمَلَلُ، وتَراهُم يَتمنُّونَ لَو سَكَتَ المُتَكلِّمُ أَو أَنهَى كَلمَتَهُ عَلى عَجَلٍ.

وهَذا كُلُّهُ مِنَ التَّناقُضِ، وهُو دَليلٌ عَلى ضَعفِ الإِيمانِ، فَإِنَّ اللهَ وَصَفَ المُؤمِنينَ فَقَالَ: {**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**} [سورة الأنفال: ٢].

فَمَن كانَ يَتَضَجَّرُ مِن مَجالِسِ الذِّكرِ وَلاَ يُطيقُ الجُلوسَ فِيها؛ فَفِي إِيمانِهِ خَلَلٌ ونَقصٌ، وبِخاصةٍ إِذا كانَ يَستَروِحُ مَجالِسَ اللَّهوِ وَلا يَسأَمُ أَو يَملُّ مِنها.

وَمِنَ التَّناقُضاتِ:

أَن تَرى بَعضَ النَّاسِ مِمَّن مَنَّ اللهُ عَلَيهِم بِنِعمَةِ حُبِّ القِراءَةِ وَالاطِّلاعِ وَالرَّغبَةِ فِي المَعرِفَةِ، فَترى كَثيراً مِن هَؤلاءِ لاَ يَستَفيدُ مِن هَذِهِ المَوهِبَةِ، إِلاَّ فِي قِراءَةِ أَشياءَ إِن لَم تَضُرَّهُ فَهِيَ لا تَنفَعُهُ، فَتَراهُ يَجمَعُ أَنواعاً مِنَ الصُّحُفِ، وأَلواناً مِنَ المَجَلاَّتِ، وأَصنافاً مِنَ الرِّواياتِ وَالقِصَصِ الفارِغَةِ، فَيَقضِي ساعاتٍ -بَل وأَياماً- مِن عُمرِهِ فِي قِراءَتِها، يُصبِحُ عَلَيها، ويُمسِي عَلَيها، ويُضَيِّعُ بِذَلِكَ أَوقاتاً مِن عُمرِهِ القَصيرِ مِن غَيرِ أَن يَستَفيدَ شَيئاً يُقَرِّبُهُ إِلى اللهِ.

إِنَّ مَحَبَّةَ القِراءَةِ نِعمةٌ عَظيمةٌ، يَنبَغِي عَلى العَبدِ رِعايَتُها وصَرفُها فِيما يَنفَعُهُ، فَمَن رُزِقَ هَذِهِ النِّعمَةَ فَإِنَّ عَلَيهِ أَن يَستَفيدَ مِن وَقتِهِ فِي قِراءَةِ القُرآنِ وحِفظِهِ، أَو قِراءَةِ الأَحاديثِ النَّبَوِيَّةِ، أَوِ النَّظَرِ فِي كَلامِ أَهلِ العِلمِ، وَالاطِّلاعِ عَلى فَتاوِيهِم وأَقوالِهِم فِي المَسائِلِ التِي يَحتاجُ إِلَيهـا

النَّاسُ جَميعاً؛ لِيَستَقيمَ لَهُم أَمرُ دينِهِم ودُنياهُم.

وَمِنَ التَّناقُضاتِ:

أَن تَرى فِي إِحدى الصُّحُفِ أَوِ المَجَلاَّتِ حِواراً مَعَ فَنَّانٍ أَو لاعِبٍ، فَتُطرَحُ عَلَيهِ أَسئِلَةٌ شَرعِيةٌ لِيُبدِيَ رأيَهُ فِيها: ما رَأيكَ فِي الزَّواجِ المُبكِّرِ؟ ما رَأيُكَ فِي تَعَدُّدِ الزَّوجاتِ؟ إِلى أَمثالِ تِلكَ الأَسئِلَةِ التِي لا يَجوزُ أَن يَتكلَّمَ فِيها إِلاَّ مَن هُو أَهلٌ لِذَلِكَ مِن أَهلِ العِلمِ وَالمَعرِفَةِ.

ولَو أَنَّ أَحداً استَفتَى عالِماً فِي أَمرٍ رِياضِيٍّ أَو فَنِّيٍّ لانتَقَدَهُ الجَميعُ، فَيا سُبحانَ اِلله! أَيَكونُ الكَلامُ فِي دينِ اِلله كَلاماً مُباحاً لِلجَميعِ، وَالكَلامُ فِيما سِواهُ مَقصورٌ عَلى أَهلِهِ؟!

إِنَّ هَذا لَهُو التَّناقُضُ الذِي ما بَعدَهُ تَناقُضٌ.

فَنَسأَلُ اَلله تَعَالَى أَن يَرزُقَنا البَصيرَةَ فِي الأَمرِ، وَالعَزيمَةَ عَلى الرُّشدِ، وأَن يَدُلَّنا عَلى ما فِيه صَلاحُ دِينِنا ودُنيانا.

الخطبة الثانية

الحَمْدُ لِله...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ: وَمِنَ التَّناقُضاتِ:

أَمرٌ يَتَعَلَّقُ بِأَهلِ الحِسبَةِ الآمِرينَ بِالمَعروفِ والنَّاهينَ عَنِ المُنكَرِ، أُولَئِكَ الذينَ انتَدَبوا أَنفُسَهُم لِلمُحافَظَةِ عَلى خاصِيَّةِ هَذِهِ الأُمَّةِ التي امتَدَحَها اُللهبِها فِي قَولِهِ: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**} [سورة آل عمران: ١١٠]، وقَد لَعَنَ اُلله أُمَّةً أُخرى بِسَبَبِ تَركِها هَذا الأَصلَ العَظيمَ، قَالَ تَعَالَى: {**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**} [سورة المائدة: ٧٨].

وَلأَهَمِيَّةِ هَذِهِ الفَريضَةِ فَإِنَّ بعضَ العُلَماءِ جَعلَ الأَمرَ بِالمَعروفِ والنَّهيَ عَنِ المُنكَرِ رُكناً سادِساً لأَركانِ الإِسْلامِ الخَمسَةِ، وَلِهذا كُلِّهِ فَإِنَّ مَن يَقومُ بِوَظيفَةِ الحِسبَةِ مِن حَقِّهِ عَلَينا أَن نُعينَهُ ونَدعوَ لَهُ بِالتَّوفيقِ والسَّدادِ، وأَن نَشُدَّ مِن أَزرِهِ، ونَكونَ عَوناً لَهُ فِي حَربِهِ معَ الفَسادِ وأَهلِهِ.

كَما أَنَّ مِن واجِبِنا تِجاهَ أَهلِ الحِسبَةِ أَن نَذكُرَ مَحاسِنَهُم وحُسنَ بَلائِهِم، وأَن نَستُرَ ما قَد يَقَعُ منهم مِن خَطَأٍ أَو خَلَلٍ، فإِنَّهُم لَيسُوا بِالمَعصومينَ، ولا يُمكِنُ لأَحدٍ أَن يَطلُبَ مِنهم أَن يَكونُوا كَذلِكَ. ولِذا كانَ مِنَ الواجِبِ سَترُ خَطَئِهِم إِذا وَقَعَ مِنهُم، معَ بَذلِ النَّصيحَةِ لَهُم.

وَلَكِنَّ المُشاهَدَ مِن فِعلِ أَكثرِ النَّاسِ هُو خِلافُ هَذا تَماماً، فَإِنَّهُم إِذا رَأَوا مِن أَهلِ الحِسبَةِ زَلَّةً أَو خَطَأً جَعَلوهُ حَديثَ مَجالِسِهِم، وشَهَّروا بِهِم فِي كُلِّ مَكانٍ، ونَسُوا جَميعَ ما لَهُم مِن حَسَناتٍ، وما قَدَّموهُ مِن ذَبٍّ عَن دينِ اِلله، وحِمايَةٍ لِلمُسلِمينَ وَلأَعراضِهِم.

وَهذا كُلُّهُ دَليلٌ عَلى ضَعفِ العَقلِ وقِلَّةِ البَصيرَةِ، فَإِنَّ مَن يَقَعُ فِي أَهلِ الحِسبَةِ ويَنالُ مِنهُم يَكونُ بِذَلِكَ قَد جَنَّدَ نَفسَهُ فِي صُفوفِ جُندِ إِبليسَ، الذِينَ يَسوؤُهُم الأَمرُ بِالمَعروفِ، ويَسعَونَ لِنَشرِ المُنكَرِ.

فَهَل يَعِي ذَلِكَ أُولَئِكَ الجاهِلونَ الذِينَ يَظلِمونَ أَهلَ الحِسبَةِ، ويُبالِغُونَ فِي وَصفِ أَخطائِهِم، ويُغرِقُونَ بَحرَ حَسَناتِهِم فِي قَطرةٍ مِن سَيِّئاتِهِم؟!

إِنَّ كُلَّ مَن تَولَّى وَظيفَةً أَو تَصَدَّى لِواجِبٍ مِنَ الواجِباتِ، فَلا يَسلَمُ مِنَ الخَطَأِ، فَالمُدَرِّسُ يُخطِئُ، وَالمُديرُ يُخطِئُ، وَالطَّبيبُ يُخطِئُ، وَلَكِنَّ خَطَأَ هَؤلاءِ جَميعاً لا يُنسَبُ إِلاَّ إِلى مَن وَقَعَ مِنهُ، فَلا تَسمَعُ أَحداً يَذُمُّ جَميعَ المُدَرِّسينَ؛ لأَنَّ أَحَدَهُم أَخطأَ، وَكَذلِكَ الأَمرُ بِالنِّسبَةِ إِلى الطَّبيبِ وغَيرِهِ.

فَأمَّا أَهلُ الحِسبَةِ: فَخَطَأُ الواحِدِ مِنهُم لاَ يُنسَبُ إِلَيهِ، وَإِنَّما يُنسَبُ إِلى جَميعِ المُحتَسِبينَ، فَيُوصَفونَ بِأَقبَحِ الأَوصافِ، ويُشَهَّرُ بِهِم فِي المَجالِسِ، وهَذا كُلُّهُ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ ومَكرِهِ وانقِيادِ كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ لَهُ.

فَاَلله نَسأَلُ أَن يَكفِيَنا شَرَّ النَّفسِ والهَوى. اللَّهُمَّ اهدِنا لأَحسَنِ الأخلاقِ لاَ يَهدِي لأحسَنِها إِلاَّ أَنتَ، واصرِف عَنَّا سَيِّئَها لاَ يَصرِفُ عَنَّا سَيِّئَها إِلاَّ أَنتَ.

اللَّهُمَّ وَفِّقِ الآمِرينَ بِالمَعروفِ والنَّاهينَ عَنِ المُنكَرِ، اللَّهُمَّ قَوِّ شَوكَتَهُم، ومَكِّن هَيبَتَهُم، وأَعِنهُم وَلا تُعِن عَلَيهِم، وانصُرهُم وَلا تَنصُر عَلَيهِم. اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَالمُسلِمينَ، وأَذِلَّ الشِّركَ وَالمُشرِكينَ.

سُبحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسلامٌ عَلى المُرسَلينَ، والحَمدُ لِله رَبِّ العالَمينَ.